المرحلة الثالثة / الدراسة المسائية

اسم المادة / فلسفة التاريخ

عنوان المحاضرة : نظرية العصبية والدولة عند ابن خلدون

اسم التدريسي/المدرس ثائر سلمان فيصل

2025-2026

المحاضرة : نظرية العصبية والدولة عند ابن خلدون

الدولة عند ابن خلدون هي محور حركة التاريخ، وإن كانت العصبية هي الأساس الذي يعتمده في تفسيره لقيام الدول وسقوطها، أي أن العصبية والدولة يمثلان عنده قطبي الحركة الدورية التي كان يرى أن التاريخ يسير على إيقاعها.

وبذلك فإن التجارب والخبرات التي اكتسبها ابن خلدون من الواقع السياسي والاجتماعي الذي عاشه يمثلان الاساس الذي ارتكزت عليهما هذه الفكرة.

وأن الوصول إلى السلطة يستند إلى القوة القبلية الذي يمتلكها الكيان ويصل عن طريقها إلى الحكم بالعصبية وتأسيس دولة، فلا بد أن يكون للحاكم أو الأسرة التي تؤسس الدولة وتتسلم السلطة تنتمي إلى قبيلة معينة أو مجموعة متحالفة من القبائل.

فالعصبية عند ابن خلدون: هو مفهوم اجتماعي يشد أواصر جماعة معينة على أساس انتماء واحد (رابطة الدم أو النسب) وتمثل الركيزة الأولى للعصبية، لكن ابن خلدون لا يجعل هذه الرابطة على درجة واحدة من القوة والتأثير في ذوي القربى بتناصرهم وتعاضدهم، فهناك نسب كبيرة تزيد هذه الرابطة قوةً ووثوقاً، وبنسب ضعيفة تكون هذه الرابطة أقل قوة، فقوة هذه الرابطة تؤدي إلى قيام دولة وحينما تصل إلى أوج قوتها وازدهارها تستقوي أهل عصبات أخرى وتحصل على الملك وتقوم بتأسيس دولة.

وإن هذه الرابطة تتمثل في دفع الضرر عن أي خطر خارجي وجلب المنفعة في مراحل زمنية معينة من حياتها غايتها نحو تحقيق ملك (الدولة) فهي تمثل غاية بحد ذاتها في نظرية ابن خلدون في فلسفة التاريخ، بل هي وسيلة لتحقيق غاية متمثلة بالملك وتأسيس الدولة.

ويرى ابن خلدون أن العصبية لا تقوم على أساس (رابطة الدم أو النسب) فحسب، فإنها تستند إلى رابطة النسب العرقي وما يلحقها من نسب بالولاء أو الحلف وطول المعاشرة الصحبة أو سواها.

وتظهر هذه الرابطة العصبية في مجتمعات البدو أكثر من مجتمعات الاخرى، فهي تقوي شوكتهم وتمثل قوة دفاعية ترهب عدوهم، أما مجتمعات الحواضر فلا يحتاجون إلى العصبية والالتحام لأسباب عديدة (وجود أسوار للمدن وحاميات للدولة بالدفاع عنهم وحمايتهم)، لذا فإن العرب بعد الفتوحات الإسلامية أهملوا (النسب) واختلطوا بالعجم وفسدت الأنساب وفقدت ثمرتها من العصبية.

وقد تأخذ العصبية منحى اخرى في ظروف معينة كوقوع تبديل كبير من تحويل حالة أو ذهاب عمران، فترجع العصبية فتقوم بتأسيس دولة لصالح الواقع الذي يحدثه هذا التبديل الكبير، وهذا الأمر لا يمكن لقوة العصبية تحققه لوحدها دون قوة دين، وخير مثال هو أن الدولة العربية

الإسلامية لم تكن لتؤسس لولا الإسلام الذي خفف من حدة الصراع القبلي وجمع القبائل في عصبية قبلية واحدة، أما بوجود نبوة أو دعوة حق.

ورغم ذلك فإن ابن خلدون يرى أن قوة العصبية تبقى فاعلة في أمر نشوء الدولة، والوصول إلى الغاية المقررة لها حتى مع وجود عوامل موازية أخرى كالدين والدعوة الدينية تزيد من أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها.

فالتاريخ الإسلامي عند أبن خلدون تاريخ صراع بين العصبيات اكتسب في معظم الأحوال غطاءً دينياً على أساس القرب والبعد من ثوابت الإسلام، ولم يرى في تلك الصراعات سوى صراعات قبلية تتوافق مع فكرة العصبية التي جاء بها، فأن مرحلة بلوغ الدولة يعني أن العصبية قد حققت الغاية التي تسعى إليها، وهي غاية أساسية شكلت محور النظرية الخلدونية.

وكان تفسيره لحركة التاريخ يقوم على ثنائية العصبية والدولة، وبعدما تنجح العصبية في تشكيل دولة، فقد تمر بمراحل عمرية ثم تهرم أو تزول في أمرها، وتبرز عصبية جديدة تقضي عليها وتؤسس دولة جديدة على أنقاضها من طور البداوة إلى طور الحضارة لتنتهي هذه الحضارة بانتهاء الدولة وتبدأ عملية انتقال جديدة من البداوة إلى الحضارة في دورة مماثلة لدورة العصبية والدولة.

ويرى ابن خلدون أن الدولة لها عمر محدد كالإنسان(يولد وينمو ويموت)، فالعمر الطبيعي له (120) سنة، فقد ينقص أو يزيد في حالات نادرة، والدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال، والجيل عمر شخص واحد، والأجيال الثلاثة هي التي تتعاقب على الدولة.

- **<u>الجيل الأول</u>:** يتصف ببقائهُ على نمط الحياة البدوية والتمتع بالشجاعة والبسالة والتمسك برابطة العصبية التي يشترك أفرادها في المجد.
- **<u>الجيل الثاني</u>:** هو الجيل الذي تغير حالهُ بالملك الذي حصل عليه فينتقل إلى حياة الرفاه والتحضر، ويتحول من الاشتراك بالمجد إلى التفرد بالحكم فتكسر العصبية بعض الشيء.
- **<u>الجيل الثالث</u>:** هو الجيل الذي تنقرض الدولة على يديهِ إذ يبلغ الترف في غايتهِ وتتلاشى العصبية بين أبنائهِ فيتركون الحماية والدفاع عن أنفسهم، فلا يستطيعون مقاومة أي عصبية أخرى قد تأتي بالمطالبة بالحكم فتنهار الدولة.

إن المُلك الذي تحققهُ العصبية بعد تأسيسها للدولة يمر بمراحل ثلاث تنعكس على صاحب المُلك وعلى الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي وتفضي في آخر الأمر إلى هرم الدولة وهي:

• **<u>الانفراد بالمجد:</u>** من قبل صاحب المُلك الذي هو رئيس العصبية الكبرى الحاكمة، ولا يسمح لأصحاب العصبيات الصغيرة بالمشاركة في الحكم، فيعطيهم الاموال فيتكاسلوا عن الغزو والدفاع

عن الدولة، ثم يأتي الجيل الثاني من هؤلاء فيقدم لهم العطاء فيصبح أجير في الدولة وليس شريكاً فيها، وهذا يؤدي إلى الضعف في العصبية بذهاب البأس من أهلها.

• **التـرف:** من طبيعة المُلك الترف من خلال كثرة النعم التي تتجاوز ضرورات العيش فيتجهون إلى التفاخر في اللباس والأكل والزينة والعمائر... الخ فتكون النفقات باهظة وتزيد على الاعطيات، وبذلك فإن الفقير يهلك، والغني يستغرق عطائهُ بترفهِ، وهذا ينعكس على واردات الدولة فتكون غير كافية، فيلجأ صاحب الدولة إلى انتزاع ما في أيدي الكثير من الناس فيضعف حالهم، ويضعف صاحب الدولة بضعفهم، فيضطر حاكم الدولة بتقليل أعداد الجند لكونه لا يستطيع سد العجز (النفقات)، فتضعف الحماية وتسقط قوة الدولة، فتأتي دولة مجاورة يستفحل أمرها فتأخذ بالسيطرة على الحكم أو من تحت يديها من القبائل.

• **الطمأنينة والاستقرار:** وهي من طبقة المُلك، إذ يتعودون على هذة الحياة ويألفون ذلك ويتوارثونه من بعدهم أجيال، فتصبح عادة مألوفة وينسون عادات البداوة وشدة البأس، وقد يؤثر هذا على الدولة فيضطر صاحب الدولة إلى اختيار أشخاص غير ذوي العصبية جنداً للدفاع عن الدولة حفاظاً عليها من الزوال وهذا وقع لبني العباس.

ويرى ابن خلدون إن الدولة تمر بخمس حالات أو أطوار:

- **الطورالأول:** شعور الظفر والانتصار والاستحواذ على الملك الذي يشترك أفرادها في المجد وجباية المال والدفاع عن الدولة؛ لأن ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب.
- **الطَّوْرُ الثَّانِي:** يَنْفَرِدُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ بِالْحُكْمِ وَيَمْنَعُ أَهْلَ الْعَصَبِيَّةِ الْآخَرِينَ مِنَ الْمُشَارَكَةِ فِيهِ، وَيَتَّجِهُ إِلَى الْمَوَالِي وَالْأَنْصَارِ، وَالاستكثار بِهِمْ لِكَسْرِ شَوْكَةِ أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ وَعَشِيرَتِهِ، وَيَجْعَلُ اهل بيتهِ يستأثرون بَالْمَجْدِ، فَيَبْتَعِدُونَ أَهْلَ نسبهِ للاخلاص لَهُ وينحازونَ إِلَى الَا بَاعِيدٍ ضِدَّ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ.
- **الطَّوْرُ الثَّالِثُ:** هُوَ الطَّوْرُ الَّذِي تُجْمَعُ فِيهِ الْأَمْوَالُ لانتِظَامِ الجِبَايَةِ وَدِقَّةِ نِظَامِ الْوَارِدَاتِ وَالنَّفَقَاتِ، وَخِلَالُهُ تَشْيِيدُ الْمَبَانِي وَالْمَصَانِعِ الْكَبِيرَةِ وَتَؤسسُ الْمُدُنِ الواسعة، فَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ كَرِيمًا عَلَى أَهْلِهِ وَصُنَاعِهِ بِالْمَالِ وَالجَاه، ويدر عَلَى جُنُودِهِ أَرْزَاقَهُمْ وَأَعْطِيَاتِهِمْ بِانْتِظَامٍ، وَيعْدَ هَذَا الطَّوْرِ آخِرُ أَطوَارِ الِاسْتِبْدَادِ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ.
- **الطَّوْرُ الرَّابِعُ:** طورُ القنوع والسلامة لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ بِمَا وَرِثَهُ عَنْ المَاضِين مِنْ أَسْلَافِهِ مُتَّبِعًا آثَارَهُمْ وَطُرُقَهُمْ والخُرُوجُ عَنْ تَقَالِيدِهِمْ فَسَادُ أَمْرِهِ، وَإِنَّهُمْ ابصرُ أَ بِمَا بَنوهُ مِنْ مَجْدِ.
- **الطَّوْرُ الْخَامِسُ:** الْإِسْرَافُ وَالتَّبْذِيرُ مِنْ المَالِ عَلَى الشَّهُوَاتِ وَالمَلَّذَّاتِ وَالْإِنْفَاق عَلَى بِطَانَتِهِ، وَالْإِسْرَافُ عَلَى النسَاءِ وَمَجَالِسِ السَّمَرِ مَعَ سُوءٍ فِي التَّصَرُّفِ يَجُرُّ عَلَيْهِ ضَغِينَةَ كِبَارِ الْأَوْلِيَاءِ مِنْ قَوْمِهِ وَصنَائِعِهِ فَيَتَخَاذَلُونَ عَنْ نُصْرَتِهِ.

وَهَذَا الْإِسْرَافُ يُقَلِّلُ مِنْ جُنْدِ الدَّوْلَةِ الَّذِي يَضْعُفُ أَدَائُهُمْ وَأَهْلِيَّاتُهُمْ مِنْ قِبَلِ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ فَيَدْخُلُ عَلَيْهَا الْمَرَضُ الْمُزْمِنُ حَتَّى تَنْقَرِضَ هَذِهِ الدَّوْلَةِ.

فَإِنَّ الدَّوْلَةَ تَأْسِيسُهَا وَأَجيالُهَا وَأَوْضَاعُهَا الْمُختلَفَةُ وَأَطْوَارُ حيَاتُهَا، وَمِدَّةُ وُجُودِهَا تَرْتَبِطُ بِالْعَصَبِيَّةِ وَحَالَاتِهَا الْمُخْتَلِفَةِ قُوَّةً وَضَعْفًا.